

الهجرة النبوية.. دروس وعبر



أ.د/ عباس شومان^(١)

مع مطلع شهر المحرم من كل عام هجري يقف أهل
الصلاح والتقوى يتأملون سيرة النبي ﷺ في تفاصيل هذا
الحدث العظيم الذي يصور خروج النبي من مكة بعد أن ضاقت
أرجاؤها بالدعوة ذرعاً إلى المدينة التي نورت بقدمه أشرف
خلق الله إليها.

إلى أهلها، فقد ائتمن بعض الكفار والمشركين
من أهل مكة نبينا محمداً ﷺ على أموالهم
وودائعهم، لكنه لم يخرج بها إلى المدينة،
ولم يحدث نفسه أن يأخذها عوضاً عما لاقاه
هو وأصحابه من تعذيب وكيد وإيذاء مادي
ومعنوي، ولم يفكر في أن يحجبها عنهم أو
يؤخرها ولو لفترة، وإنما أبقى ابن عمه علي
بن أبي طالب رضي الله عنه ليرد الأمانات إلى
أهلها، والمفارقة أن من هؤلاء من تجمع أمام
داره ليضرب عنقه!

وأداء الأمانات من أوجب الأمور التي تجب
على المسلم، يقول الله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾

(النساء: ٥٨)

والم تأمل لذكرى هذا الحدث يدرك أنه قد
مر عام من عمره بحلوه ومره، بخيره وشره،
بحسناته وسيئاته، ولا يدري الإنسان منا أهو
له أم عليه؛ لذا فإن من الدروس المهمة التي
يجب أن يستلهمها كل إنسان من هذا الحدث
العظيم هو قيمة الوقت، وأهمية العمر،
وشرف الزمان، فالوقت هو الحياة، واستغلاله
في الطاعة طريق النجاة؛ حيث إن انتهاء عام
من عمر الإنسان يقربه من لقاء الله خطوة، ولا
يدري الإنسان كم بقي من عمره، يقول الحسن
البصري: «ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب
يوم ذهب بعضك»^(١).

وعمر الإنسان هو رأس ماله الحقيقي، لذا
قال بعض الحكماء: «كما أن الليل والنهار
يعملان فيك، فأعمل فيهما»^(٢).

ومن الدروس المرتبطة بالهجرة رد الأمانات

(*) وكيل الأزهر الشريف.

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (١٤٨/٢).

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا (٢٩/١).

الله عنه لرد الودائع ؛ فإنه ترك فينا كتاب الله وسنته لنؤدي أماناتنا حيث أمرنا الله بها .

ومما يجدر في هذا السياق التذكير بأنواع الأمانات ، وأول ما يرد إلى الذهن من أنواع الأمانات أمانة الودائع من أموال وما شابهها ، وحفظها وأداؤها لأصحابها عندما يطلبونها كما هي ، مثلما فعل الرسول ﷺ مع مشركي مكة ، قبل الهجرة من مكة إلى المدينة ؛ حيث إن الإسلام يأمر أتباعه بأداء الأمانة حتى لو كانت لمن لا يؤدونها ، فيقول رسول الله ﷺ : «أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنَكَ ، ولا تخُنْ من خانَكَ» (٤) . وهذه الأخلاق الإسلامية العالية تحتاج إليها الأمة للحفاظ على الأموال العامة التي تستبيحها بعض النفوس المريضة بفكر أعوج منحرف ، جعل مقدرات الدول وإمكاناتها نهبا ومطمعا لمن لا يخافون يوم الحساب .

ومن الأمانات أيضا أمانة العبادة التي توجب على المسلم أن يلتزم بالتكاليف ، فيؤدي فروض الدين كما ينبغي ، ويحافظ على الصلاة والصيام وغيرهما من التكاليف الشرعية ، وينتهي عما نهى عنه من السرقة والقتل وشرب الخمر والظلم وقطيعة الرحم ... إلخ ، وأن يحفظ الجوارح التي أودعه الله إياها ، وألا يسرف في المال المستخلف فيه ، والإخلال بشيء من ذلك من الخيانة لله ولرسوله ، وهي منهي عنها بقوله تعالى :

وَيَسِّرْ اللَّهُ تَعَالَى ثَقُلَ الْأَمَانَةُ وَعَظُمَ شَأْنُهَا بِمَفْهُومِهَا الْأَوْسَعِ فَقَالَ :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

(الأحزاب : ٧٢)

وعن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « قَالَ اللَّهُ لَادِمٌ : يَا آدَمُ إِنِّي عَرَضْتُ الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَلَمْ يُطِقْنَهَا ، فَهَلْ أَنْتَ حَامِلُهَا بِمَا فِيهَا ؟ قَالَ : وَمَا فِيهَا يَا رَبِّ ؟ قَالَ : إِنَّ حَمَلْتُهَا أَجَزْتُ ، وَإِنْ ضَيَعْتُهَا عَذَّبْتُ ، قَالَ : فَأَنَا أَحْمِلُهَا بِمَا فِيهَا ، قَالَ : فَلَمْ يَلْبَثْ فِي الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْرًا مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْوَلِيِّ إِلَى الْعَصْرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا » ، قَالَ : « وَالْأَمَانَةُ هِيَ الْفَرَائِضُ الَّتِي أَتَمَّنَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْعِبَادَ » (٣) .

ومن ثم ، يخطئ بعض الناس حين يقصر الأمانة على مبلغ من المال يحفظه الناس عند بعضهم فتؤدي عند طلبها ، فالأمانة تتسع لما هو أكثر من ذلك ؛ إذ هي كل ما يجب حفظه وتأديته إلى أهله ، فهي كلمة واسعة المدلول تشمل جميع العلاقات الإنسانية ؛ فالإيمان وتعهده بأسباب الرعاية والنماء أمانة ، وإخلاص العبادة لله أمانة ، وإحسان المعاملة مع الناس أمانة ، وإعطاء كل ذي حق حقه أمانة . وإذا كان النبي ﷺ قد ترك علي بن أبي طالب رضي

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي (١/٤٧٣) .

(٤) سنن أبي داود (٣٥٣٤) ، مسند أحمد (١٥٤٢٤) .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

(الأنفال : ٢٧) .

ومن الأمانات التي لا يلتفت إليها كثير من الناس أمانة العمل ، فمن الأمانة أن يؤدي المرء ما عليه من واجب وظيفي على خير وجه ، فالعامل يتقن عمله ويؤديه بإجادة وأمانة . ومما يتناقض مع أمانة العمل ما يشيع بين بعض الناس من أنه يعمل على قدر ما يعطى من مال ، والأصل أن الأجر على قدر المشقة ، وليس العمل على قدر المال ، فمثل هذه الأقوال دعوة للفوضى ، وتضييع لأمانة العمل التي حثنا عليها النبي ﷺ بقوله : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه »^(٥) ، وإلا فكيف تنضبط الأعمال إذا خضعت لمثل هذه الأهواء ؟!

ومن أمانة العمل كذلك أن يؤديه الإنسان دون أن تمتد يده إلى ما لا يجوز من مال أو هدية مما أبطله الشرع وحرمه ، وشنع فعله القانون وجرمه ، وعلى هذا فكثير ممن يقعون في هذه المخالفات قد ضيعوا أمانة العمل في بلد أحوج ما يكون إلى الجِد والاجتهاد والأمانة في العمل ليحقق لنفسه الكفاية على الأقل ، فضلا عن أن يكون في مصاف الدول المتقدمة !

ومن الأمانات أمانة الكلمة ، فالمسلم الأمين هو الذي يلتزم بالكلمة الحادة ، فيعرف قدر الكلمة وأهميتها ، ولا يقول

شيئاً ويفعل غيره ، وعلى المرء أن يتخير كلماته فلا ينطق إلا بخير ، فالكلمة قد تدخل صاحبها الجنة وتجعله من أهل التقوى ، وقد ينطق الإنسان بكلمة فيصير من أهل النار ، فالكلمة ذات أثر بالغ ، فهي قد تجر إلى سوء المآل ، أو إلى حسن العاقبة ، يقول الله تعالى :

﴿الَّذِينَ تَرَكَفَ ضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾

(إبراهيم : ٢٤ - ٢٦)

ويقول الرسول ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا ، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ »^(٦) .

وعلى المسلم أن يتأدب بالآداب اللسانية العامة من صيانة اللسان عن الكذب في الحديث ، أو تتبع عورات الناس ، أو الغيبة والنميمة ، أو الاتهام وقذف الناس بالباطل ، أو إشاعة أسرار الناس التي أوثمن عليها ، فقد قال النبي ﷺ : « إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ

(٥) المعجم الأوسط للطبراني.

(٦) صحيح البخاري (٦٤٧٨).

ثُمَّ التَفَّتْ فَهِيَ أَمَانَةٌ»^(٧).

ومن الأمانات التي يحتاج إليها الإنسان في تعاملاته اليومية أمانة البيع والشراء، فينبغي على المسلم أن يكون صادقاً في بيعه وشرائه، أميناً في إظهار محاسن وعيوب سلعه وبضائعه، يقول النبي ﷺ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ»^(٨)، وليدرك المسلم أن البركة والزيادة والنماء إنما تكون حيث يكون الصدق والوضوح والسماحة. ومن أخلاق المسلم في البيع والشراء ألا يغش أحداً، ولا يغدر به ولا يخونه، وإن كان فيما يبيعه عيب وجب أن يوضحه للمشتري، فقد مرَّ رسول الله ﷺ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قَالَ: «أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ، مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»^(٩)، وقال رسول الله ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ. وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ بَاعٌ مِنْ أَخِيهِ بَيْعًا، فِيهِ عَيْبٌ، إِلَّا بَيْنَهُ لَهُ»^(١٠).

وهذا المنهج الأمين هو الذي عاش عليه الصحابة والتابعون رضي الله عنهم، فعن أبي سباع قال: اشتريت ناقةً من دار واثلة بن الأسقع، فلما خرجت بها، أدركنا واثلة وهو يجرُّ رداءه، فقال: يا عبد الله، اشتريت؟ قلت: نعم، قال: هل بين لك ما فيها؟ قلت: وما فيها؟

قَالَ: إِنَّهَا لَسَمِينَةٌ ظَاهِرَةُ الصَّحَّةِ، قَالَ: فَقَالَ: أَرَدْتَ بِهَا سَفَرًا، أَمْ أَرَدْتَ بِهَا لَحْمًا؟ قُلْتُ: بَلْ أَرَدْتُ عَلَيْهَا الْحَجَّ، قَالَ: فَإِنَّ بِخَفِّهَا نَقْبًا، قَالَ: فَقَالَ صَاحِبُهَا: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا تُفْسِدُ عَلَيَّ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَبِيعُ شَيْئًا إِلَّا بَيَّنَّ مَا فِيهِ، وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا بَيَّنَّهُ»^(١١)، ولذا يجب على المسلم التخلق بهذه الأخلاق السامية، وانتهاج هذا النهج القويم في البيع والشراء لإصلاح ما يجري في دنيا الناس من مقاولات وتوريدات ومشتريات، إلى آخر العقود التجارية التي تحتاج إلى إعادة نظر في ضوء هذه النصوص وهذه الأخلاقيات.

ومن الأمانات كذلك الوفاء بالعهود، وفي ديننا كثرة كثرة من النصوص التي تأمر بحفظ العهد، ومنها قول النبي ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(١٢). ولا تنتهي أمانة الوفاء بالعهود عند المسلمين، وإنما يجب على المسلم أن يفي بالعهد ولو لغير مسلم، يقول الله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
(التوبة: ٤).

(٧) سنن أبي داود (٤٨٦٨) وسنن الترمذي (١٩٥٩).

(٨) سنن الترمذي (١٢٠٩).

(٩) صحيح مسلم (١٠٢).

(١٠) سنن ابن ماجه (٢٢٤٧).

(١١) مسند أحمد (١٦٠١٣).

(١٢) مسند أحمد (١٢٣٨٣).

فلا يخرج على الناس إلا بما يصلح مشاكلهم في الحياة، دون أن يلجأ إلى استخراج مسائل قبرتها بطون الكتب ولم تعد الحياة المعاصرة بحاجة إليها، ناهيك بالمسائل التي تقسم الأمة وتفرقهم شيعاً، وتشير على الناس شراً، وتعود على الإسلام وعلمائه سلماً.

وعلى هذا، فالأمانات تشمل الحياة كلها، وتشمل الأحياء كلهم؛ فالحاكم مؤتمن، والقاضي مؤتمن، والمعلم مؤتمن، والداعية مؤتمن، والزوج مؤتمن، والزوجة مؤتمنة، والعامل مؤتمن، والصانع مؤتمن، وكل إنسان مؤتمن على ما ولاه الله تعالى، يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَّةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» (١٥).

ومن الأمانات التي يستخف بها الرجل والمرأة على السواء، أمانة حفظ البيوت، وصيانة ما يكون بين الرجل وزوجه، فالإسلام يربي الأسرة المسلمة على أن تكون نواة طيبة للمجتمع الصالح، وتبدأ هذه الأمانة بأن يحفظ كل واحد منهما سر الآخر وعرضه، ويصون ما بينهما عن بذله للناس، يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» (١٣).

ومن الأمانات كذلك أمانة العلم، فالعالم الذي يخل بعلمه ولا يبذله للناس، يلجم بلجام من نار يوم القيامة جزاء ما عطل لسانه عن النطق بالعلم، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» (١٤). ومن أمانة العلم كذلك عدم استغلاله لتبرير الانتماءات والاتجاهات، واستخدامه في ما يفسد على الناس عيشتهم، ويفرق بين الوالد وولده، وبين المرء وزوجه. ومن أمانة العلم أيضاً أن يصدق العالم في علمه،



(١٣) صحيح مسلم (١٤٣٧).

(١٤) مسند أحمد (٧٥٧١)، وسنن أبي داود (٣٦٥٨).

(١٥) صحيح البخاري (٢٥٥٨)، وصحيح مسلم (١٨٢٩).